

تدبر القرآن ومآلاته

فتحي صالح معتوق

قسم الدراسات الإسلامية / كلية الآداب / جامعة طرابلس

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فإن مسألة تدبر القرآن الكريم وفهمه فهماً صحيحاً يعد من أبرز الأمور التي يجب أن تعنى بها الأمة ، حيث إن هجر القرآن الكريم مصيبة حلت بنا ، وأدت إلى ضعف أمتنا وخنوعها ، حتى سيطر عليها أعداؤها وأصبحت تابعة بعد أن كانت متبوعة وسبب هذا هجرها لكتاب ربها، وبعدها عنه ، فلو أننا رجعنا إلى كتاب الله - تعالى - وتدبرنا ما فيه ، وعملنا به لانتصرنا كما انتصر أسلافنا قال تعالى : ﴿ كَتَبَ آزَلَنَّهُ إِلَيْكَ مِزْرُوقٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾¹ فكتاب الله أنزل كي نتدبر ما فيه ، ونستفيد من منهجه العظيم فهو كتاب هداية وبشرى للمؤمنين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾² ولنا في سلفنا الصالح القدوة الحسنة في تعاملهم مع كتاب الله من تلاوة ، وفهم ، وتدبر ، وعمل ، حيث كان القرآن الكريم منهج حياتهم ، فكانوا يعملون به ويعيشون معه تدبراً وفهماً وتطبيقاً ، فغير حياتهم تغييراً كاملاً ، وأصبحوا سادة الدنيا بعد أن كانوا لا قيمة لهم بين الأمم .

وإن ما تعيشه أمة الإسلام اليوم من تخلف بين الأمم ، وهزائم متلاحقة ، وفرقة وتشنت ليدل دلالة تامة على بعدها عن كتاب ربها ، الذي كان مصدر سعادتها ، وعزها ، وعظمتها ، فالقرآن الكريم لم يعد منهجاً لأمة الإسلام اليوم ، ولا ضابطاً لسلوك أفرادها ومجتمعاتها ، فضلاً عن اهتمام أفرادها به وتدبرهم له ، وتذوقهم له وعيشهم معه كمنهج حياة . فإذا ما أردنا الرجوع إلى ما كانت أمتنا فيه من عز ورفق ، فعلياً أن نعود إلى سبب ذلك العز والرفق ، ألا وهو تمسكها بكتاب ربها ، تلاوة ، و تدبراً ، وعملاً ، ومن هنا جاءت فكرة كتابة هذا البحث الذي سأناقش فيه مفهوم التدبر وأهميته وأفضل الوسائل التي تعين على التدبر والفوائد التي تجنى من التدبر ، ثم واقعنا المعاصر وموقفنا من تدبر القرآن الكريم .

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان الآتي :

- 1 - إظهار مفهوم التدبر وأهميته وحاجة الأمة إليه .
- 2 - إيضاح الوسائل التي تعين على التدبر .
- 3 - بيان الفوائد التي تجنى من التدبر .
- 4 - واقعنا المعاصر بسبب تركنا التدبر .

¹ - سورة ص ، الآية 29 .
² - سورة الإسراء ، الآية 9

هيكلية البحث : قسمت بحثي هذا إلى ثلاثة مطالب ، وتحتها مجموعة من الفروع مبتدئاً بمقدمة وذيلته بخاتمة بها أهم النتائج والتوصيات ثم فهراس : والمطالب هي:

المطلب الأول : مفهوم التدبر ومقاصده وأهميته

المطلب الثاني : الوسائل المعينة على تدبر القرآن

المطلب الثالث : ثمار التدبر ووقعنا المعاصر

المطلب الرابع : ثمار التدبر .

المطلب الخامس : واقعنا المعاصر وتدبر القرآن .

منهجية البحث : اتبعت المنهج الإستقرائي للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ثم المنهج الوصفي التحليلي لتحليل المعلومات التي جمعتها وتنظيمها في قالب مفهوم معبر من خلاله عما يجول في ذهني حيال هذا الموضوع وملاحظة الواقع المعاش ، وما آل إليه حال الأمة بسبب بعدها عن منهج ربها . سائلاً المولى تعالى أن يكون هذا البحث موفقاً .

المطلب الأول : مفهوم التدبر ومقاصده

الفرع الأول : مفهوم التدبر

التدبر في اللغة : مأخوذ من مادة (دَبَرَ) قال ابن فارس وهو آخر الشيء ، وخلفه خلاف قبله ودَبَّرْتُ الحديث عن فلان ، إذا حدثت به عنه وهو من الباب ؛ لأن الآخر المحدث يدبر الأول يجيء خلفه ... وفي الحديث " ولا تدابروا " ³ وهو من الباب وذلك أن يترك كل واحد منهما الإقبال على صاحبه بوجهه ... " ⁴

وقال ابن منظور دبر الأمر وتدبره أي : نظر في عاقبته ، واستدبره : رأى في عاقبته ما لم ير في صدره ، وعرف الأمر تدبراً أي بأخره ، قال جرير :

ولا تتقون الشر حتى يصيبكم
ولا تعرفون الأمر إلا تدبراً

والتدبير في الأمر : أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، والتدبر التفكير فيه ، وفلان ما يدري قبال الأمر من دباره ، أي أوله من آخره ، ويقال فلان لو استقبل من أمره ما استدبره لهدى لوجهة أمره ، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره ⁵ .

وفي الحديث عن عائشة - رضي الله عنها - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت " ⁶ فأضاف التدبر إلى شأنه وأمره - صلى الله عليه وسلم -

ثانياً : التدبر عند المفسرين

³ - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابير ، رقم (2558) .

⁴ - معجم مقاييس اللغة 3 / 324 .

⁵ - لسان العرب لابن منظور ، مادة دبر ، 4 / 268 .

⁶ - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب بيان وجوه الإحرام رقم الحديث (1211) .

اختلفت أقوال المفسرين وتفسيراتهم لمصطلح التدبر ولكنها في مضمونها لا تختلف كثيراً إذ تؤكد تعاريفهم كلها على تأمل المعاني وتبصر الآيات والأحكام ، فلو استعرضنا بعض هذه التعاريف : فمثلاً عند الزمخشري : تأمل معانيه وتبصر ما فيه ⁷ ، وعند القرطبي : التفكر فيه وفي معانيه ⁸ ، وعند الخازن : تأمل معانيه وتفكر في حكمه وتبصر ما فيه من الآيات ⁹ ، وعند أبي حيان التفكر في الآيات والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء ¹⁰ وعند ابن القيم تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبره وتفكره ¹¹ .

من التعريفات السابقة نخلص إلى تحديد أمرين ، الأول : أن مفهوم التدبر في مصادر اللغة له معنيان ، حقيقي وهو الأصل ، ومفاده آخر الشيء وخلفه ، ومجازي ، ومختصره النظر في عاقبة الأمر ونهايته ، وما يؤول إليه ، والنظر أيضاً في أول الكلام وآخره ثم إعادة النظر فيه مرة بعد مرة وهو نشاط وجهد ذهني يقوم به العقل بغية التوصل إلى عواقب الأمور ونتائجها ، وبهذا يتم بتحصيل المعرفتين تحصيل معرفة ثالثة .

وهذا المعنى اللغوي حاصل في كتب التفسير ، لكنه مخصص فيها بنصوص القرآن الكريم، ومن ثم فإن التدبر فيها لا يخرج عن المعاني الآتية :

1 - التأمل الذهني في معاني القرآن الكريم ، وآياته ، وأوامره ، ونواهيته ، ومبادئه ، وعواقبه .

2 - نظر القلب وجمع الفكر أيضاً فيه .

3 - إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له ، ومن ثم فإن هذه الخصوصية في معنى التدبر عند المفسرين تكاد لا تبتعد عن معنى النظر أو التأمل القلبي أو العقلي ، وجمع الفكر بهما إذا خصصنا هنا النظر العقلي بالجانب الذهني المحض ، والنظر القلبي بالجانب الذهني والروحي معاً

وهذا المختصر في فهم "التدبر" هو مراد البحث ، والفهم الذي أصطلحه لبحثي ، وأقيم به موضوعاته وأناقشها ، مؤكداً على تأكيد الجرجاني في التفريق الدقيق بين "التفكر" ، و"التدبر" إذ يقول : " والتدبر هو النظر في عواقب الأمور وهو قريب من التفكير، إلا أن التفكير تصرف القلب بالنظر في الدليل ، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب " ¹²

ومن ثم فإن للتدبر معاني فكرية وروحية ، تتصل بمقامات التبعّد ، والتقرب إلى الله ، واتصال أشواق الروح به - سبحانه - بخلاف "التفكر" الذي يقترب في مهامه من مقاصد المعرفة واستكشاف الدلائل والأحكام ، كما يمكننا أن نضيف هنا جانبين لمفهوم التدبر ، الجانب المباشر : وهو التحديد الذي بينته في الفقرة السابقة ، فحينما يذكر "التدبر" في آية ، أو مقام شرح ، أو توضيح له في القرآن ، فإنه لا يبتعد كثيراً عن السابق ، والجانب غير مباشر : وهو عبارة عن ممارسات عملية تشمل أي مسلك تعبدي روحي ، كالصلاة ، أو الصوم ، أو الزكاة... وتشمل أيضاً القربات الأخرى التي يتقرب بها العبد إلى ربه ، بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي ، ومن ثم الأخذ بكل ما هو نافع ومفيد ، كثرمة للتدبر ، واستجابة من استجاباته .

7 - الكشف للزمخشري 571/1 .
8 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 290/5 .
9 - لباب التأويل في معاني التنزيل 563/1 .
10 - البحر المحيط 397/7 .
11 - مدارج السالكين 363/1 .
12 - تدبر القرآن ، للجرجاني ص(11) .

ثالثاً : المعنيون في القرآن بالتدبر .

إن التدبر المأمور به في القرآن عام ، يشمل المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين ولو استعرضنا كلام الله في القرآن لوجدناه يخاطب الجميع بالتدبر ، ففي شان المنافقين قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ ¹³ ﴾ الآية ، وأيضاً قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ ¹⁴ ﴾ الآية ، وفي تفسير هاتين الآيتين يقول الطبري " أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواظب الله التي يعظهم بها في أي القرآن الذي أنزله على نبيه -- صلى الله عليه وسلم -- ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ، ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْئَالٌهَا ¹⁵ ﴾ ، يقول أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواظب والعبر ... إذ والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله ، لو تدبره القوم فعقلوه ، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عن ذلك " ¹⁶

وقال السعدي : " أي فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ، ويتأملونه حق التأمل ، فإنهم لو تأملوه وتدبروه لدلهم على كل خير ، ولحذرهم من كل شر ، ولملأ قلوبهم من الإيمان ، وأفندتهم من الإيقان ، ولأوصلهم إلى المطالب العالية ، والمواهب الغالية ، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله ، وإلى جنته ومكلماتها ومفساتها ، والطريق الموصلة إلى العذاب ، وبأي شيء تحذر ، ولعرفهم بربهم وأسمائه وصفاته وإحسانه ، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل ورهبهم من العقاب الوبيل " ¹⁷

من تفسير الآيتين السابقتين نخلص إلى أن الله - تبارك وتعالى - أنكر عليهم (أي المنافقون) ما كانوا عليه من إعراض عن تدبر هذا الكتاب العزيز ، ولو أنهم تدبروه وأمعنوا النظر فيه لوقفوا على إعجازه ، ولعلموا أنه ليس بكتاب بشر .

وأما الكفار : فكذا نزلت فيهم آيتان تأمرهم بالتدبر وهو قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَذَبَّرُوا ¹⁸ ﴾ الآية وقوله : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ ¹⁹ ﴾ الآية قال الطبري: " أفلم يتدبر المشركون تنزيل الله وكلامه ، فيعلموا ما فيه من العبر ، ويعرفوا حجج الله التي احتج بها فيه ؟ ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ ²⁰ ﴾ الآية ، أم جاءهم أمر ما لم يأت من قبلهم من أسلافهم ، فاستكبروا ذلك وأعرضوا ، فقد جاءت الرسل من قبلهم ، وأنزلت معهم الكتب ²¹

وقال الألوسي : " قوله ﴿ أَفَلَمْ يَذَبَّرُوا ¹⁸ ﴾ لإنكار الواقع واستقباحه ... أي فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر ، فلم يتدبروا القرآن ليعلموا بما فيه من وجوه الإعجاز أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به ، وأم في قوله تعالى : ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ ... ¹⁹ ﴾ منقطعة

13 - سورة النساء الآية 82 .

14 - سورة محمد الآية 24 .

15 - سورة محمد ، من الآية 24 .

16 - جامع البيان عن تأويل أي القرآن 179/22 .

17 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (788) .

18 - سورة المؤمنون ، الآية 68 .

19 - سورة ص ، الآية 29 .

20 - سورة المؤمنون ، من الآية 68 .

21 - جامع البيان للطبري ، 56/19 .

وما فيها من معنى للإضراب ، والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بأخر ، والهزمة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع أي بل أجاءهم من الكتاب ما لم يات أباؤهم الأولين حتى استعبدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال²² .

وقال الشوكاني (ت 1250هـ) " بين - - سبحانه - - أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة : الأول : عدم التدبر في القرآن فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وأمنوا به وبما فيه²³ "

نخلص من هذا : إلى أن كفار مكة لم يكونوا من المتدبرين للقرآن ، ولم يتمتعوا في معانيه بل أعلنوا العداء له عناداً وكفراً وجحوداً ، ولو أنهم كانوا منصفين وأعطوا لأنفسهم الفرصة في التدبر لا سيما وأنهم أهل فطنة وذكا لفهموا أن هذا ليس بكلام بشر ولكانوا من المؤمنين به . وأما عموم المؤمنين فإن التدبر في حقهم واجب ، وهم مأمورون بذلك ؛ لأنهم ، سينتفعون بهذا التدبر ولا يعذر أحد في عدم التدبر ؛ لأن القرآن أنزل بلغة العرب ومنه قدر كبير جداً يعلمه كل من ينطق باللغة العربية وقد عمم القرآن مسألة التدبر في قوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا ﴾²⁴ الآية وفيه علة إنزال هذا الكتاب وهي التدبر ومعلوم أنه لا يستفيد المسلم من القرآن الكريم ما لم يتدبره ويتمتع في معانيه ، ويحول هذا الفهم والتدبر إلى عمل ومنهج حياة .

الفرع الثاني : مقاصد التدبر وأهميته :

لقد بين المولى - - سبحانه - - وتعالى - أن الغاية والقصد من نزول القرآن هو العمل به والالتزام بتعاليمه وتحصيل هذه الأمور بتدبر القرآن والتفكير في معانيه ؛ ولذلك فإن قراءة سورة أو عدد من الآيات بتدبر خير من قراءة عدد من السور دون تدبر قال تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ . وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾²⁵ قال الطبري: أي ليتدبروا حجج الله التي فيه ، وما شرع فيه من شرائعه ، فيتعظوا ويعملوا به²⁶ ، وقال الشوكاني : " والمعنى كتاب أنزلناه إليك يا محمد كثير الخير والبركة²⁷ " ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم تتعدد فيه الخيرات ولا يمكن حصره ، فهو كتاب هداية ، فمن خلاله يجد المتدبر الأحكام المتعلقة بالمكلف ، والأحكام الخاصة بالأسرة والأمة ، يجد الأوامر والنواهي ، يجد القصص والأخبار التي يستفيد منها العير ، يجد الأمثال . ففيه تجد الخير كله ، وما عليك إلا التدبر والعمل به قدر فهمك للآية الكريمة ، أو السورة وهكذا . أما الفهم دون العمل فهو وبال على صاحبه ، فالمقصود من هذا الكتاب العظيم هو أنه كتاب هداية يجب العمل به ، فلا تتحقق الغاية إلا بالعمل بهذا المنهج العظيم ، ولقد أشار النبي - - صلى الله عليه وسلم - - إلى تعلم القرآن وبين ثماره ؛ لأن التعلم آلة التدبر فقال: " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله - تعالى - يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده²⁸ "

وقال السيوطي : " وتسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم ، وبه تشرح الصدور، وتستنير القلوب²⁹ " فالمقصود أن يكون هذا القرآن منهجاً للعمل وهداياً للسلوك ؛ لأن من تدبر القرآن كان ذلك دافعاً له للعمل ، ولا شك أن من أحسن العمل نال رضا المولى - - سبحانه - - وتعالى - بل ترتفع مكانته حتى عند الناس في الدنيا كما قال - صلى الله

22 - روح المعاني ، للأوسى ، 50/18 .

23 - المصدر نفسه ، 50/18 .

24 - سورة ص 29 .

25 - سورة ص ، الآية 29 .

26 - جامع البيان للطبري 190/21 .

27 - فتح القدير للشوكاني 430/4 .

28 - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، حديث رقم (2699) .

29 - الإتقان في علوم القرآن 140/1 .

عليه وسلم - :

" إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين "30 وفي الآخرة له الدرجات العالية عند الله - سبحانه - وتعالى - ففي صحيح مسلم من حديث أبو امامة الباهلي قال : قال - صلى الله عليه وسلم - : " يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق³¹ ، أو كأنهما حزقان³² من طير صواف تحاجان عن صاحبيهما "33

ودون العمل يصبح العلم وبالاً على صاحبه ، فما فائدة العلم إذا لم يصاحبه العمل به ، إذ يزداد العلم رسوخاً إذا صدقته الأفعال "وما من شك أن العمل بالعلم يقرره في النفس أبلغ تقرير ، وينقشه في صحيفة الفكر أثبت نقش ، على نحو ما هو معروف في فن التربية وعلم النفس ، من أن التطبيق يؤيد المعارف والأمثلة تقيد القواعد ، ولا تطبيق أبلغ من العمل ، ولا مثال أمثل من الاتباع ، خصوصاً المعارف الدينية، فإنها تزكو بتنفيذها ، وتزيد باتباعها ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾³⁴ أي هداية ونوراً تفرقون به بين الحق والباطل وبين الرشد والغي "35

ولقد أشار النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى تعلم القرآن الكريم وبين ثماره ، حيث أن العلم وسيلة الفهم الصحيح ، والتدبر الصحيح ، فقد خرج مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده "36 ، وعن عقبة بن عامر قال : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن في الصفة فقال : " أياكم يحب أن يغدو كل يوم على بطحان أو على عقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم " فقلنا يا رسول الله نحب ذلك قال : " أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين ، وثلاث خير من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل "37 وقد أراد النبي - صلى الله عليه وسلم - من خلال هذا الحديث الشريف ؛ ترغيبهم في الباقيات الصالحات وترهيدهم في الدنيا ، وهذا على سبيل التقريب ، وإلا فالدنيا كلها لا تعادل آية من كتاب الله ، أو بثوابها .³⁸

المطلب الثاني : الوسائل المعينة على تدبر القرآن

لا يمكن للفرد أن يتدبر القرآن تدبراً صحيحاً دون الرجوع إلى الوسائل الرئيسية ، فهي الحجر الأساس ، والقاعدة الأولى للتدبر ، وبدون معرفتها وممارستها عملياً يصبح التدبر مجرد معلومات نظرية بعيدة عن مقصود الشارع الحكيم من التدبر الحقيقي .

ومن هذه الوسائل ما يأتي :

الفرع الأول : الدعاء مع إخلاص النية .

- 30 - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، رقم الحديث (817) .
- 31 - الشرق : الضوء وهو الشمس ، النهاية في غريب الحديث 1143/2 .
- 32 - الحزق : الجماعة من كل شيء ، النهاية في غريب الحديث والأثر 948/1 .
- 33 - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، حديث (801) .
- 34 - سورة الأنفال ، الآية (29) .
- 35 - مناهل العرفان 311 / 1 .
- 36 - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، رقم الحديث (2699) .
- 37 - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن وتعلمه رقم الحديث : (803) .
- 38 - عون المعبود شرح سنن أبي داود ، 231/4 .

الدعاء

هو نقطة البداية ، وهو الأساس لكل توفيق فمهما امتلك الإنسان من وسائل الفهم والعلم والعزيمة لا يمكن أن يظفر بشيء من التدبر دون اللجوء إلى مولاه ، فليدع الإنسان ربه أن يوفقه لفهم كتابه العزيز وتأمل معاني الآيات والعيش في رحابه ، وهذا لا يكون إلا بتوفيق الله تبارك وتعالى .
الفرع الثاني الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم :

لا بد للقارئ للقرآن من الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حيث قال الله - تعالى - ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾³⁹ والمراد الاستعاذة الحقيقية من الشيطان ، يقول الحافظ ابن كثير: " الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير"⁴⁰ فالاستعاذة من الشيطان بقلب ملئ بالإيمان تعتبر بمثابة تمهيد للفهم والتدبر ، وأيضاً طلب العون من الله - تعالى - في صرف هذا العدو اللدود عن الإنسان لا سيما وهو يتلو كتاب الله - تعالى

الفرع الثالث : وسائل التدبر الإدراكية في النفس ومنها :

أولاً : إعمال السمع في الانصات للقرآن :

الاستماع والانصات للقرآن الكريم . لقد أمرنا الله - سبحانه - وتعالى بأن نستمع للقرآن وننصت؛ لأن هذا هو سبيل التدبر فعندما يستمع الإنسان ويعمل جوارحه ويركز جيداً فيما يسمع فإنه يفهم الكثير مما يتلى، ومع الاستمرار فإن ذلك ينعكس عليه بالخير والفلاح والتطبيق، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾⁴¹ يقول ابن عاشور في هذا الصدد : " وفي تقديم السمع على البصر في مواقع من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر ، فإن التقديم

مؤذن بأهمية المقدم ؛ وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل ، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع ، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه ، بخلاف البصر فإنه يحتاج على التوجه بالاتفات إلى الجهات غير المقابلة"⁴² ، وقال الطبري في تفسير الآية السالفة : " أصغوا له سمعكم ؛ لتتفهموا آياته ، وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه لتعقلوه وتندبروه ، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه"⁴³ .

ولقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يستمع إلى القرآن الكريم يتلى عليه ، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال قال لي النبي - صلى الله عليه وسلم - : " اقرأ علي " قلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : " فإني أحب أن أسمع من غيري " فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾⁴⁴ قال : " حسبك" فإذا عيناه تذرفان⁴⁵ ، وهذا من تأثره - صلى الله عليه وسلم - ومعرفته بأحوال ذلك اليوم العظيم ، وقد أسلم الكثير من الصحابة نتيجة تأثرهم بالقرآن الكريم بعد سماعهم له . وقد صنف ابن القيم الناس عند سماع القرآن إلى ثلاثة أنواع فقال : " الأول : رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له فهذا ليست الآية ذكرى في حقه

39 - سورة النحل ، الآية 98 .
40 - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير 602/4 .
41 - سورة الأعراف الآية 204 .
42 - التحرير والتنوير لابن عاشور ، 258/1 .
43 - جامع البيان للطبري 13 / 344 - 345 .
44 - سورة النساء ، الآية 41 .
45 - أخرجه البخاري في صحيحه 4 / 1637 .

الثاني : رجل له قلب حي مستعد ، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة ، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة ، إما لعدم ورودها ، أو لوصولها إليه وقلبه مشغول عنها بغيرها ، فهو غائب القلب ليس حاضراً ، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى ، مع استعداد وجود قلبه .

الثالث : رجل حي القلب مستعد تليت عليه الآيات ، فأصغى بسمعه ، وألقى السمع ، وأحضر قلبه ، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه ، فهو شاهد القلب ، ملقي السمع ، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة فالأول بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر .

والثاني بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه فكلاهما لا يراه .

والثالث بمنزلة البصير الذي حدق إلى جهة المنظور ، وأتبعه بصره ، وقابله على توسط من البعد والقرب ، فهذا هو الذي يراه⁴⁶

ثانياً : إعمال البصر في تدبر القرآن

كلمة بصر تطلق على الجارحة النازرة⁴⁷ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾⁴⁸ أما قوة القلب المدركة فيقال لها بصيرة⁴⁹ ، ومنها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾⁵⁰ فالبصيرة تختلف عن البصر ، فهي تمثل قوة القلب المدركة وتجمع على بصائر والبصر يجمع على أبصار⁵¹ .

وكلمة نظر إذا أطلقت يراد بها تقليب البصر والبصيرة، لإدراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد بها التأمل والتفحص لإدراك الشيء⁵² ومنها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ قِيَامُ يَوْمٍ يُؤْتُونَ فِيهِ بِصُورَتِهِمْ صُورَةً يُحَرِّفُونَ فِيهَا أَبْعَادًا لِئَلَّا يَصِفُوا أُمَّةً قَدْ خَلَتْ لَعَلَّهُمْ يَأْتُونَ فِيهَا حَسْرَةً ﴾⁵³ والنظر يشمل : النظر في آيات الله المشهودة، والنظر في آيات الله المكتوبة ، والنظر في سننه في الأمم السابقة .

أما " رأى " ومشتقاتها فتعني النظر بالعين ، والقلب ، وإدراك المرئي ، والهدف من ذلك التدبر والاعتبار ، ولقد وضع القرآن الكريم أسساً وأطواراً مختلفة للإدراك البصري الصحيح، تبدأ بنظرة إجمالية، ثم نظرة تحليلية للموقف ، وإدراك مكوناته التفصيلية قدر الطاقة البشرية، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى في سورة الملك : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا

مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴾⁵⁴

46 - مدارج السالكين لابن القيم 354-353/9 .

47 - تاج العروس ، مادة نظر 245/14 .

48 - سورة السجدة ، الآية 12 .

49 - تاج العروس ، مادة نظر ، 245/14 .

50 - سورة ق الآية 22 .

51 - تاج العروس ، مادة نظر ، 245/14 .

52 - المصدر نفسه ، 245/14 .

53 - سورة الأعراف ، الآية 185 .

54 - سورة الملك ، الآية 3 .

يقول ابن القيم : "لا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك ، وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه ، وذلك هو الفكر بعينه " 55 .

ثالثاً : اقتران القلب بحاستي السمع والبصر :

إن ارتباط القلب بحاستي السمع والبصر أشد من ارتباطه بغيرهما من الحواس ، فيقول ابن القيم (ت751هـ) : " إن وصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوى من سائر الحواس الأخرى ، وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما ، ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما ، بل لا يكاد يقرن إلا بهما أو بأحدهما " 56 ، ففي معرض دمه للذين لا يتبعون طريق الحق نجده يركز على هذه الحواس الثلاثة القلب والسمع والبصر فيقول - سبحانه - وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ دَرَأْنَا لِيَجْهَنَّمَ كَثِيرًا

مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنسِ ۗ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَٰئِعِمْ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۗ ﴾ 57

، وقال أيضاً : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ 58

وسر اقتران هذه الحواس الثلاثة هو أنها طريق العلم ، فالسمع والبصر والعقل هذه الحواس الثلاثة هي التي يعتمد عليها الإنسان في العلم ، فيقول الشيخ السعدي متحدثاً عن اقتران هذه الحواس الثلاثة : " خص هذه الحواس الثلاثة لشرفها وفضلها ؛ ولأنها مفتاح لكل علم ، فلا يصل للعبد علم إلا من هذه الأبواب الثلاثة ، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها ، وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به ؛ وذلك لأجل أن يشكروا الله ، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله ، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه ، وقابل النعمة بأفبح المقابلة " 59

وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - أهمية القلب بالنسبة للجسد ، وأن صلاح الجسد يكون بصلاح القلب ، وكذلك العكس ، فعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) 60 ، ونلاحظ جلياً أن القلب إذا أحب شيئاً قاد صاحبه إليه وكذلك إذا أبغض

الفرع الرابع : ترتيل القرآن وحضور القلب عند تلاوته :

لقد أمر الله المسلم أن يرتل القرآن ترتيلاً ؛ لما في الترتيل من تعظيم لكلام الله - تعالى - ، والترتيل : معناه التنسيق والتنضيد ، ويعني إرسال الكلمة من الفهم بسهولة واستقامة بحيث تكون على نسق واحد بما يعين على فهم المعنى 61 ، وقال ابن

كثير في معنى قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ 62 : " أي اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره " 63 كما

يقول المولى - سبحانه - في هذا السياق : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ 64 يقول الجصاص في معنى هذ

55 - مفتاح دار السعادة 213/1 .

56 - مدارج السالكين 132/2 .

57 - سورة الأعراف ، الآية 179 .

58 - سورة النحل ، الآية 78 .

59 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 445 .

60 - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، رقم الحديث 28 .

61 - تاج العروس 32/29 نقل بتصريف

62 - سورة المزمل ، الآية 4

63 - تفسير القرآن العظيم ، 250/8 .

64 - سورة الإسراء ، 106 .

الآية الكريمة : " أي فرقناه بالبيان عن الحق من الباطل ، وقوله: ﴿ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ يعني على تثبت وتوقف ليفهموه بالتأمل ويعلموا ما فيه بالتفكر ، ويتفقهوا باستخراج ما تضمن من الحكم والعلوم الشريفة " 65 ولا شك أن القراءة بتمهل

وترسل أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ ، وقد كانت قراءته - صلى الله عليه وسلم - بسكينة وتدبر وتمهل فعن حذيفة - رضي الله عنه - قال : " صليت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت يركع عند المائة ثم مضى ، فقلت يصلي بها في ركعة ، فمضى فقلت يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول سبحان ربي العظيم ، فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال سمع الله لمن حمده ، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريباً من قيامه " 66 هكذا كانت قراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - " فجمع عليه الصلاة والسلام بين القراءة والذكر والدعاء والتفكير ، لأن الذي يسأل عند السؤال ويتعوذ عد التعوذ ، ويسبح عند التسبيح ، لا شك أنه يتأمل قراءته ، ويتفكر فيها ، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر ، قراءة وتسبيحاً ودعاءً وتفكيراً ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا كله 67"

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - أنها سئلت عن قراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت " كان يقطع قراءته آية آية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ ۝ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ٤ ۝ ﴾ وفي لفظ ثم نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً " 68

وعن حفصة - رضي الله عنها - أنها قالت : " ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلى في سبحته 69 قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام ، فكان يصلي في سبحته قاعداً وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها " 70

إذا كانت هذه هي قراءة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وهو معلم البشرية أليس حري بنا أن نتعلم هذا بل وربما ما عليه الأمة اليوم من الذل والهوان هو بسبب عدم تدبرها لهذا المنهج العظيم فالحفاظ أكثر ولا يوجد من يتدبر ويعمل إلا من رحم الله ، عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - بقي يحفظ سورة البقرة ثمانين سنين ، هل كان هذا عجز منه عن الحفظ ؟ كلا ، بل كان حرصاً على العمل أولاً ، فكان يحفظ الآية ويتدبرها ثم يعمل بما فيها ، وعندما أكمل حفظ البقرة نحر جزوراً 71 . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث " 72 ، وهذا يدل على أن الثلاث هي الحد الأدنى ، وأن النقص عنها يدل على أن القراءة بدون تدبر كافي وتمعن وتعقل . والقراءة الصحيحة التي يجب على كل مسلم أن يقرأها هي حضور القلب ، والتركيز التام فيما تقرأ ؛ لأن

65 - أحكام القرآن للجصاص 35/5 .

66 - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب القراءة في صلاة الليل ، رقم الحديث 772 .

67 - شرح رياض الصالحين ، 93/2 .

68 - أخرجه الترمذي في سننه ن كتاب فضائل القرآن ، باب كيف كان قراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، رقم الحديث 2923 ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

69 - سبحته أي نافلته ، تحفة الأحوذني بشرح جامع الترمذي 311/2 .

70 - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب صلاة النافلة قائماً وقاعداً ، رقم الحديث 733 .

71 - شعب الإيمان للبيهقي 331/2 ، رقم 1957 . نقل بتصريف .

72 - أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الصلاة ، باب تحزيب القرآن ، رقم الحديث 1394 .

القرآن هو رسالة لكل مسلم ، وحري بمن ترسل إليه رسالة أن يركز فيها ويفهم مضمونها، يقول ابن القيم - رحمه الله - (ت751هـ) : " إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته، وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه من تكلم به - سبحانه - منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾⁷³ ...⁷⁴ وقد بينت هذه الآية المباركة كل ما سبق الحديث عنه بأوجز عبارة . ويقول ابن مسعود - رضي الله عنه - واصفاً القراءة التي ينبغي لكل مسلم أن يقرأ بها : " لا تنتروه نثر الدقل ، ولا تهذوه هذ الشعر ، فقوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"⁷⁵

الفرع الخامس تحسين الصوت بالقرآن والتغني به .

إن تحسين الصوت بالقرآن أمر مطلوب ، فهو يزيد من تعلق السامع به والإنصات له ورب قارئ يكون أكثر تأثيراً من قارئ ، ولقد وقف النبي - صلى الله عليه وسلم - مرة يستمع لقراءة أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - وقال : " لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزامراً من مزامير آل داود"⁷⁶ فتحسين الصوت والأداء الجيد يزيد التلاوة روعة ، ويشد السامع إلى الاستماع ومن ثم التمعن والتدبر ، وقد حدثنا النبي - صلى الله عليه وسلم - على ذلك فقال : " زينوا القرآن بأصواتكم"⁷⁷ وقال : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن"⁷⁸ ولهذا يجب أن نعلم أن التغني بالقرآن عبادة ، وسنة أمرنا بها الشارع الحكيم لما في ذلك من الفوائد، يقول الإمام النووي : " أجمع العلماء من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها ، ودلائل هذا من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مستفيضة عند الخاصة والعامة"⁷⁹ فمن رزق صوتاً حسناً يجب أن يعلم أن هذه نعمة عظيمة حرم منها غيره ؛ فعليه أن يسخرها في تلاوة القرآن وتجويده والتغني به ، دون رياء أو سمعة ، حتى يستفيد هو بإحضاره قلبه وتأثره بالقرآن، ويفيد غيره كذلك .

الفرع السادس : حب القرآن واستشعار عظمته :

القرآن كلام الله ، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾⁸⁰ ، حري بالمسلم الفطن أن يوطن نفسه وأهل بيته منذ البداية على حب القرآن، والتعلق به، وكيف لا ؟ وهو مصدر كل خير ، وإذا أحب الإنسان شيئاً فإنه يتعلق به، ويبحث عنه، ويشتاق إليه، ويشغف به، وينقطع إليه، وهذا ما يجب أن يكون مع القرآن الكريم ، فقال - سبحانه - وتعالى في وصف هؤلاء : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾⁸¹ وحرر المولى - سبحانه - عباده من الإعراض عن القرآن ، وعدم تلاوته وتدبره ، فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْفَتْسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾⁸² ، ولذا فإن حب القرآن من أنفع الأسباب وأقربها لحصول التدبر الصحيح ، وقال أهل العلم إن أفضل الطرق لحب القرآن والتعلق به ،

⁷³ - سورة ق ، الآية 37 .

⁷⁴ - الفوائد ص 3 .

⁷⁵ - أخلاق حملة القرآن 4/1 ، رقم الحديث 2 .

⁷⁶ - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن رقم الحديث 793 .

⁷⁷ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده 283/4 رقم 18517 .

⁷⁸ - أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن ، باب من لم يتغن بالقرآن ، رقم الحديث 7087 .

⁷⁹ - التبيين في آداب حملة القرآن ص 109 .

⁸⁰ - سورة فصلت ، الآية 42 .

⁸¹ - سورة الرعد ، الآية 28 .

⁸² - سورة الزمر ، من الآية 22 .

هي القراءة عن عظمته من خلال ما ورد من سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأقوال السلف وأعمالهم في تعظيمهم للقرآن الكريم ، وحبهم وكثرة تلاوتهم له .

الفرع السابع التواضع واللين لتدبر القرآن وفهم معانيه .

إن التواضع لكلام الله - سبحانه - وتعالى أمر ضروري وواجب ، فالمسلم يتعامل هنا مع كلام رب العالمين فكيف لا يتواضع أو يشعر بالخشوع التام وهو يقرؤه ، ولقد قص القرآن الكريم حال النصراني المنصفين كيف كان حالهم من التواضع واللبكاء والتوسل إلى الله - سبحانه وتعالى - إذا سمعوا القرآن ، وما أنزل على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾⁸³ ، قال الحافظ ابن كثير : " تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف "⁸⁴

وقال السعدي - رحمه الله : " ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق ؛ وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم ، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر "⁸⁵ إن صفة الكبر هي من ألعن الصفات على الإطلاق وهي التي أخرجت إبليس من الجنة ، وألحقت باليهود اللعنة ، ولذلك فإن نقيضها التواضع ، لاسيما مع كلام الله وأحكامه - سبحانه - وتعالى ، ونعيش هنا الحديث عن التدبر فإن التواضع التام مع كلام الله وتعظيمه واللين معه واستشعار عظمته من الأهمية بمكان ، والتواضع واللين يبعثان على التدبر الصحيح والعيش مع القرآن الكريم الذي يوصل صاحبه إلى العمل به وهي الغاية المقصودة بعون الله - تعالى - ، ولذلك أمر الله نبيه بأن يذكر بالقرآن من يخاف يوم الوعيد ، فقال - سبحانه - : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ ﴾⁸⁶ ؛ لأن هناك الكثير من الناس إذا تعارضت أحكام الله مع أهوائهم ذهبوا إلى أهوائهم ، وتكبروا عن أحكام الله ، ولا يعلم هؤلاء المساكين أنهم راجعون إلى الله ومسؤولون عن كل ما صدر منهم ، بل إن الله وعدهم بأن يصرفهم عن آياته وهم في الدنيا ، فلا يتلونه ، ولا يتدبرونه ؛ نتيجة لكبريائهم بغير الحق فقال - سبحانه - : ﴿ سَاءَ صِرْفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾⁸⁷

الفرع الثامن اختيار الوقت المناسب للقراءة ليس كل الأوقات مناسبة لتدبر القرآن ، فهناك أوقات مفضلة أرشدنا إليها الشارع الحكيم ، منها الليل فهذا الوقت تسكن فيه الحركة ، وتقل الأصوات ، ويعم الهدوء ، فيعتبر وقتاً مناسباً جداً لتلاوة القرآن وتدبره ، قال - سبحانه - : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيئٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾⁸⁸ ، وقال أيضاً :

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾⁸⁹ ، وقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾⁹⁰ ، فهذه النصوص المباركة تدل على أن الليل وقت مفضل لتلاوة القرآن ، وتدبره ، والعيش مع ما فيه من خيرات وبركات ،

83 - سورة المائدة ، الآية 83 .

84 - تفسير القرآن العظيم ، 168/3 .

85 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 241 .

86 - سورة ق ، من الآية 45 .

87 - سورة الأعراف ، من الآية 146 .

88 - سورة الزمر ، من الآية 9 .

89 - سورة الإسراء ، الآية 79 .

90 - سورة المزمل ، الآية 7 .

ومن السنة المطهرة : عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ذهب ثلث الليل قام فقال : " يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه ... " ⁹¹

الفرع التاسع ترديد الآيات المقرؤة والوقوف معها :

وهذا التردد من الوسائل المعينة على التدبر ، والانتفاع بالقرآن فبالتردد يتذوق المؤمن معنى الآية ، وكأنه يقف عندها ويعيش معها ، ونلاحظ الإنسان في حياته الدنيا يعيد بعض العبارات المهمة عنده ، والتي لها وقع على نفسه ، والله المثل الأعلى ولكلامه المبارك الذي كله مهم ، وكله حقائق عظيمة ، وكله رسائل لكل واحد منا ، فعندما يقف الإنسان على آية من كتاب الله - تعالى - ، ويكررها فإنه ينبه نفسه إلى ما فيها من أسرار وحكم ، بخلاف من يسرد القرآن سرداً ، ويقراه مسرعاً ، فلا يلحق أن يفهم منه شيئاً ، فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقيم ليلة كاملة بآية واحدة ، يقدم التدبر على كثرة القراءة ، فعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قام النبي - صلى الله عليه وسلم - بآية حتى أصبح يرددتها ، والآية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ لَبِئْسَ عِبَادٌ ﴾ ⁹² ، ومن أقوال السلف الصالح ، وما كانوا عليه في هذا الشأن ، يقول محمد بن كعب القرظي : " لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بإذا زلزلت ، والقارعة ، لا أزيد عليهما ، وأتردد فيهما وأفكر ، أحب إلي من أن أهد القرآن ليلتي هذا أو أنثره نثرأ " ⁹³

وعن عبادة بن حمزة بن عبد الله بن الزبير قال : " دخلت على أسماء وهي تقرأ : ﴿ فَمَنْ عَظَّمَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴾ ⁹⁴ قال فوقفت عليها فجعلت تستعيز وتدعو ، قال عبادة فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيز وتدعو " ⁹⁵ ، وهذا غيض من فيض ، يقول ابن قدامة : " وليعلم القارئ أن ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وأن يستحضر عظمة المتكلم - سبحانه وتعالى - ، ويتدبر كلامه ، فإن التدبر هو المقصود من القراءة ، وإن لم يحصل التدبر إلا بترديد الآية فليرددتها " ⁹⁶

وقال ابن القيم : " فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها ، فإذا قرأه بتفكر حتى إذا مر بآية وهو يحتاج إليها في شفاء قلبه كررها ، ولو مائة مرة ولو ليلة ، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة خمثة بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب ، وأدعى إلى حصول الإيمان ، وذوق حلاوة القرآن " ⁹⁷

الفرع العاشر صرف القلب عن موانع التدبر ومنها :

أولاً الذنوب والخطايا

تعتبر الذنوب من أخطر الأشياء التي تحول بين المسلم والتدبر ، فكلما كثرت الذنوب أسود القلب وابتعد عن التدبر في آيات الله - تعالى - ، قال - سبحانه - : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ⁹⁸ قال الحسن ومجاهد " الران : هو الذنب على الذنب

91 - أخرجه أحمد في مسنده 136/5 ، رقم الحديث 21561 .
92 - سورة المائدة ، الآية 118 .
93 - مصنف ابن أبي شيبة ، 256/2 ، رقم الحديث 8732 .
94 - سورة الطور ، الآية 27 .
95 - مصنف ابن أبي شيبة ، 25/2 ، رقم الحديث 6037 .
96 - مختصر منهاج القاصدين ، ص 60 .
97 - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة 192/1 .
98 - سورة المطففين ، الآية 14 .

حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت "99 وقال تعالى أيضاً : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾¹⁰⁰ قال الإمام السعدي: " أي هذا العمى الضار في الدين ، عمى القلب عن الحق ، حتى لا يشاهده كما لا يشاهده الأعمى المرئيات "101 وكما أسلفت فإن صاحب المعاصي يكون من أبعاد الناس عن تدبر القرآن، وتذوق حلاوته ، فهو سد الطريق الذي بينه وبين الله بهذه المعاصي ، وحجب بهذه المعاصي عن العلم كما قال - سبحانه - : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعِمْكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾¹⁰² فالتدبر في كلام الله علم عظيم ومنه من الله - تعالى - فهل يعطي الله هذا العلم وهذا الخير لأصحاب المعاصي الذين يتعدون حدوده ، فحقيقة العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعاصي سبب الحرمان من هذا النور . يقول الزركشي: " واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة ، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب ، أو في قلبه كبر، أو هوى أو حب الدنيا ، أو يكون غير متحقق الإيمان"¹⁰³

ثانياً الغفلة عن سماع القرآن :

القلب الحي يكثر صاحبه من سماع القرآن ويظل يتذوقه شيئاً فشيئاً ، ولكن الغفلة الدائمة ، وعدم الاستماع إلى كلام الله ، والابتعاد عنه باستمرار ، لاشك أنه يسبب فجوة بين القلب والقرآن، فكيف يتدبر القلب القرآن وهو لا يسمعه أصلاً ، فمن أين سيصل إليه ، قال - سبحانه - واصفاً هذه القلوب وأصحابها : ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾¹⁰⁴ ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿ ٢ ﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾¹⁰⁴ فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة لوجدنا أن أعظم مانع من تدبر القرآن هو الغفلة ، فالقلب الغافل بسبب الانشغال بالدنيا واللهو واللعب لا يتدبر وهو بعيد عن القرآن ، وإن استمع إليه وهذا يكون قليل فبالأذن فقط ، ولا يتعداها إلى القلب ، وهذا النوع من الاستماع لا فائدة منه ولا يعطي ثماره ، فالاستماع الحقيقي والمطلوب يكون بالقلب لا بالأذن فقط.

ثالثاً الابتعاد عن أمراض القلوب الخطرة .

ومنهما الحسد ، والحقد ، والرياء ، والكبر ، وحب الظهور ، وسوء الظن ، والعجب ، والتكبر عن قبول الحق ، والجدال ، يقول المولى - سبحانه - وتعالى : ﴿ سَاءَ صِرْفٌ عَنَّا إِنِّي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾¹⁰⁵ فيجب على اللبيب الساعي إلى مرضاة الله أن يبتعد عن هذه الأمراض التي تصيب القلب ، وتغلق أبواب العلم في وجهه ، وبالتالي لا يستفيد شيئاً ، ولا يستطيع أن يتدبر القرآن مهما حاول . كما يجب عليه أن يكون رزقه حلالاً ، وأن يبتعد عن الظلم ، فكل هذه الأشياء مرتبطة ببعضها وتحول دون خشوع القلب وصفائه وتلقيه القرآن فليحذر المسلم من هذه الأشياء المفسدة على القلب تدبره للقرآن .

الفرع الحادي عشر الاهتمام باللغة العربية :

99 - مفاتيح الغيب للرازي ، 86/31 .

100 - سورة الحج ، الآية 46 .

101101 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 540 .

102 - سورة البقرة ، من الآية 282 .

103 - البرهان في علوم القرآن ، 180/2 .

104 - سورة الأنبياء من البداية .

105 - سورة الأعراف ، الآية 146 .

القرآن الكريم نزل باللغة العربية ، وأولى الناس بفهمه هم العرب قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾¹⁰⁶ ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - " اللغة العربية من الدين " ¹⁰⁷ ويكون الاهتمام بها من حيث التحدث بها وتعليم الناس ، والرجوع إلى معاجمها لمعرفة معاني مفرداتها ، فصاحب اللغة العربية أقرب الناس إلى فهم القرآن الكريم ، وبالتالي إلى تدبره

الفرع الثاني عشر الرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة .

كتب التفسير تسهل على القارئ معرفة المعنى الإجمالي ؛ لأن التدبر يكفيه معرفة المعنى الإجمالي للآية ، وليس من الضروري الفهم التفصيلي لكل كلمة ، والخوض في المطولات والشروح فحري بالمسلم أن يقتني كتاب تفسير ولو كان مختصراً بغرض الفهم الإجمالي للآية الكريمة ، وهذا يعينه على التدبر أثناء التلاوة .

الفرع الثالث عشر دراسة سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

إن دراسة سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر أساسي في هذا الدين فهو من أرسله الله إلينا ، وهو الذي فسر الكثير من آيات القرآن ، وسيرته مليئة بالعبير والمواعظ التي لا غنى للمسلم عنها ، فعلى المسلم أن يدرس سيرة رسوله الكريم وصحابته الأبرار لينظر كيف عاش أولئك الرجال ، وماذا قدموا لهذا الدين العظيم ، حتى ساد الدنيا ، ثم إن سيرته - صلى الله عليه وسلم - تبين لنا كيفية تطبيق هذا الدين في واقع الحياة ، فقد كان - صلى الله عليه وسلم - كما وصفته أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - كان قرآناً يمشي على الأرض ، فمن خلال سيرته نتعلم طريقته في تطبيق القرآن الكريم في واقع الحياة .

الفرع الرابع عشر ربط القرآن بالواقع .

والمقصود هنا بهذه النقطة ، أن يعتبر الإنسان أن هذا القرآن موجه إليه مباشرة ، فإذا تأملنا في آياته نجد أنها إما أمراً أو نهياً أو حكماً أو خبراً أو قصصاً ، وكل هذا يعني السامع ، أو القارئ ، وتعتبر كل آية من آيات الله - تعالى - بمثابة رسالة للقارئ ، ولينظر إلى موقعه منها من حيث التطبيق لها ، وهذا فيما يتعلق بالأوامر والنواهي ، أو التصديق وهذا فيما يتعلق بالأخبار ، أو أخذ العبر وهذا فيما يتعلق بالقصص القرآني ... وهكذا ، فالآيات رسائل موجهة إلينا وحرري بنا أن نصغى إليها ونتمتع فيها ونعمل بها ونحولها إلى القلب بدلاً من بقائها في العقل . فهذا ابن قدامة (742هـ) يقول : " وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه المقصود بخطاب القرآن ووعيده ، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر " ¹⁰⁸ ولنا في صحابة رسول الله الأسوة الحسنة في طريقته وتعاملهم مع كتاب الله - تعالى - ، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال لما نزل قول الله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾¹⁰⁹ شق ذلك على الصحابة ، وقالوا أينما لم يظلم نفسه يا رسول الله ، فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " إنه ليس الظلم الذي تعنون ، إنه الشرك ألم تقرأوا قول الله - تعالى - : ﴿ يَبْنَئُ لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾¹¹⁰ ، فهنا بين النبي - صلى الله عليه وسلم - إشكالاً كان عند الصحابة في فهمهم لهذه الآية الكريمة ¹¹¹ .

¹⁰⁶ - سورة يوسف ، الآية 2 .

¹⁰⁷ - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم 53/11 .

¹⁰⁸ - مختصر منهاج القاصدين ، ص 61 .

¹⁰⁹ - سورة الأنعام ، من الآية 82 .

¹¹⁰ - سورة لقمان ، من الآية 13 .

¹¹¹ - أخرجه البخاري في سننه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ يَبْنَئُ لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ رقم الحديث (3429) .

المطلب الثالث : ثمار التدبر ووقفنا المعاصر وتدبر القرآن

الفرع الأول : ثمار تدبر القرآن

لاشك أن للتدبر ثماراً يجنيها المسلم من خلال تدبره للقرآن ، ومداومته للتلاوة ، فمنها ثمارٌ مباشرة ، وغير مباشرة

أولاً : ثمار التدبر المباشرة

1- معرفة الله - تعالى - وتعظيمه

عندما يداوم الإنسان على تلاوة القرآن وتدبره فإن قلبه ينشرح به ويزداد معرفة بالله - تعالى - ، وهذا يزيد حباً لله وتعلقاً بشعره المطهر ، وتطبيقاً له ودفاعاً عنه ، وكلما عظم القرآن عند الإنسان عظم وازداد اهتمامه به ، كلما عظم المولى - سبحانه - فانه عظيم في ذاته عظيم في صفاته ومنها كلامه ، وقد سماه المولى - سبحانه - : برهاناً ، ونوراً ، وهدى ، وفرقاناً ، وشفاءً لما في الصدور ، قال الحارث المحاسبي: " فإذا عظم في صدرك تعظيم المتكلم به ، لم يكن عندك شيء أرفع ، ولا اشرف ، ولا أنفع ، ولا ألد ، ولا أحلى من استماع كلام الله - تعالى - ، وفهم معاني قوله ، تعظيماً وحباً له وإجلالاً ؛ إذ كان تعالى قائله ، فحب القول على قدر حب قائله"¹¹² . ويقول الشيخ السعدي : " فإن تمام العبادة متوقف على تمام المعرفة بالله ، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه كانت عبادته أكمل "¹¹³ وقال : " فهذه الغاية المقصودة من الخلق ، والأمر : معرفة الله وعبادته ، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين ، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون "¹¹⁴ .

2- تحقق طمأنينة القلب .

إن المتدبر لكلام الله تحصل له طمأنينة لا يوازيها متاع الدنيا ، فيطمئن المسلم المتدبر في جميع أحواله ومآلاته ، ويعلم أن مقاليد الأمور بيد الله فلا يجزع لذهاب دنيا ، ولا يركن إليها ركون الكافرين إذا أقبلت ، فيطمئن قلبه ، وينشرح صدره

ويعيش مع كلام رب العالمين عيش السعداء ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾¹¹⁵ والقلوب إذا فهمت مراد الله وعاشت مع آياته المباركة انعكس ذلك عليها بكل خير وأصبحت ثابتة ، لا تؤثر فيها بدع المحدثين ، ولا تأويلات الجاهلين ، ولا فتن المضلين ، قال ابن القيم : " فما تزال معانيه تصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل ، وتبعته على الأزدباد من النعم يشكر ربه الجليل ، وتبصره بحدود الحلال والحرام ، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل ، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل ، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل ، وتتاديه كلما فترت عزماته وونى في سيره ، تقدم الركب وفاتك الدليل ، فاللحاق للحاق ، والرحيل الرحيل ، وتحذر به وتسير أمامه سير الدليل وكلما خرج عليه كمين من كائن العدو ، أو قاطع من قطاع الطريق ، نادته : الحذر ! الحذر ! فاعتصم بالله واستعن به وقل : حسبي الله ونعم الوكيل "¹¹⁶

3- زيادة الإيمان بالله - تعالى - وخشيته :

الإيمان بالله يزداد عند المتدبر فهو من يتمعن ويدقق ويفكر في كلام الله - تعالى - وهذا الحال يعكس عليه زيادة الإيمان بالله ، ومن ثم خشيته - سبحانه - . وتعالى ، والعمل بما يرضيه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ۗ

¹¹² - فهم القرآن ومعانيه ، للحارث بن اسد المحاسبي ، ص 282 .

¹¹³ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 813 .

¹¹⁴ - المصدر السابق ص 872 .

¹¹⁵ - سورة الرعد ، الآية 28 .

¹¹⁶ - مدارج السالكين ، 370-369/1 .

إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ¹¹⁷ وقال أيضاً: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ، زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾¹¹⁸ فهذه النصوص المباركة توضح بجلاء زيادة الإيمان للمتدبر والسامع لكلام الله - تعالى - يقول مجاهد والسدي: ﴿ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي فرغت وخافت¹¹⁹، وقال ابن كثير: " وهذه صفة المؤمن حقاً الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره¹²⁰ وازدياد الإيمان مع الفرح يدل على الفهم الصحيح لمنهج الله - تعالى، فإن المتتبع لمنهج الله، والدارس له يعلم أنه الخير كله، فيزداد إيماناً بالله كلما درس آياته المباركة وتدبرها، ويزداد استبشاراً وفرحاً بها، بل ويبشر بعضهم بعضاً بهذا الخير الذي وصلوا إليه وهو معرفة الطريق إلى الله، وللتدبر أثر عظيم في رقة النفوس وخوفها من مولاها - جل جلاله - ورجائها فيه كما يبين ذلك المولى بقوله: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَابًا تَفْشُرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فََمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾¹²¹ فهذا هو نعت أولياء الله والمتدبرين لكتابه العزيز، تقشع جلودهم، وتدمع أعينهم من عظمة ما يسمعون، ثم بعد ذلك تظمن قلوبهم لذكر الله - تعالى - ويفرحون ويستمتعون بسماعه، والإصغاء إليه وتدبره، يقول الحافظ ابن كثير: " هذه هي صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار؛ لما يفهمون من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشع منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم بهذا مخالفون لغيرهم من الكفار¹²²، وقال الألويسي: " والمعنى، أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده، أصابتهم رهبة وخشية تقشع منه جلودهم، وإذا ذكروا رحمة الله - تعالى - عند سماع آيات وعده تعالى، وألطفه تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة¹²³، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من اتقى الناس لله وأكثرهم معرفة به على الرغم من أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع هذا لم تفتّر عزيمته في عبادة ربه أبداً، يقول ابن عباس: بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله مع أهله ساعة، ثم نام، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿ إِنَّكَ فِي حَقِّي أَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلِيفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾¹²⁴ ثم قام فتوضأ، وصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى الصبح¹²⁵، وهذا من اهتمامه بعبادة ربه وأنه لا يغفل عنها في حال من الأحوال، وهكذا كان الصحابة الأبرار يعرفون كلام الله حق المعرفة، فكانت جلودهم تقشع، وقلوبهم تخشع، وأعينهم تدمع، كما وصفهم المولى - سبحانه - قال القرطبي: " الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر، فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقاً متأدباً متذلاً،

117 - سورة التوبة، الآية 124 .

118 - سورة الأنفال، الآية 2 .

119 - تفسير القرآن العظيم لابن كثير 11/4 .

120 - المصدر نفسه 11/4 .

121 - سورة الزمر، الآية 23 .

122 - تفسير القرآن العظيم، 94/7 .

123 - روح المعاني للألويسي، 259/23 .

124 - سورة آل عمران، الآية 190 .

125 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ إِنَّكَ فِي حَقِّي أَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلِيفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ رقم الحديث 4293 .

وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك ، وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطاطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُروا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان¹²⁶

4 شفاء لما في الصدور : القرآن شفاء لما في الصدور ، فإذا تدبر المسلم القرآن شفا صدره من الشبهات ، والشهوات التي ترد عليه فتصرفه عن طاعة ربه ، وتهوي به في أحوال الشهوات ، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي

الْصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾¹²⁷ يقول الحافظ ابن كثير : " أي : من الشبه والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس وذنس ،

﴿وَهَدًى وَرَحْمَةً﴾ أي : محصل لها الهداية والرحمة من الله - تعالى - وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه¹²⁸

وقال الطبري : " ونزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء يستشفى به من الجهل والضلالة ، ويبصر به من العمى للمؤمنين ، ورحمة لهم دون الكافرين به ؛ لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله ، ويحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، فيدخلهم بذلك الجنة ، وينجيهم من عذابه ، فهو لهم رحمة ، ونعمة من الله أنعم بها عليهم"¹²⁹

من هنا يتضح أن في التدبر شفا لما في الصدور والأبدان ، أما إن أعرض المسلم عن تدبر القرآن ، فإن الشبهات ستعرض على قلبه وتأخذه في غمارها ، وعند ذلك يصعب عليه صرفها، بل ويختلط عليه الأمر فلا يعد يعرف الشبه من

الدين الصحيح ، وكثيراً ما نسمع ذلك من عوام الناس ، وحتى ممن يعرض الناس يقولون : لقد اختلط علينا الأمر ، وما ذلك إلا بسبب البعد عن تلاوة القرآن وتدبره .

5 - الامتثال لما في القرآن والعمل به :

الغرض الأساس من التدبر هو الإمتثال والعمل بما فيه ، وإلا ما فائدة أن يفهم الإنسان كل كبيرة وصغيرة في هذا المنهج العظيم ، إذا لم يتحول ذلك إلى عمل وسلوك ، قال أهل العلم إن ثمرة الإيمان العمل ، وقد ذم الله - تعالى - بني إسرائيل في

القرآن الكريم عندما كانوا يظهرون الإيمان ولا يعملون بما فيه، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا

أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ. وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾¹³⁰ قال الشيخ

السعدي : " وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله ، وهو القرآن استكبروا وعتوا و ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ ، أي : بما سواه من الكتب ، مع أن الواجب أن يؤمن الإنسان بما أنزل الله مطلقاً ، سواء أنزل عليهم أو

على غيرهم ، وهذا هو الإيمان النافع ؛ الإيمان بما أنزل الله على كل رسوله¹³¹

¹²⁶ - الجامع لأحكام القرآن ، 375/1 .

¹²⁷ - سورة يونس ، الآية 57 .

¹²⁸ - الجامع لأحكام القرآن 274/4 .

¹²⁹ - جامع البيان في تأويل القرآن 538/17 .

¹³⁰ - سورة البقرة ، الآية 91 .

¹³¹ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 59 .

والغرض من القرآن هو العمل بما فيه كما أسلفت ، وليس مجرد الفهم ، إن الفهم والتدبر مطلوب ولكن النتيجة المرجوة من الفهم والتدبر هو العمل ، يقول الصحابي سعد بن هشام - رضي الله عنه : " سألت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - فقلت يا أم المؤمنين : أنبئيني عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : أأستقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : فإن خلق رسول الله القرآن ¹³² الحديث ، فتلاحظ هنا أن خلقه - صلى الله عليه وسلم - ما جاء في القرآن فكان يحل حلاله ويحرم حرامه ويعمل بما فيه .

وأما الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - فقد كانوا كذلك فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ¹³³ ، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - كان الصحابة الواحد منهم يحفظ السورة ونحوها ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن ، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به ¹³⁴ لا حول ولا قوة إلا بالله ، إن هذا هو واقعنا بالضبط ألسنا نلاحظ هذا الواقع واضحاً جلياً فكم عندنا من الحفاظ الذين يحفظون القرآن كاملاً ، وبأكثر من رواية ، ونراهم لا يعملون منه بشيء إلا بالقليل جداً ، فلا نشاهد أخلاقاً تذكر ، ولا نشاهد التزاماً بالعبادات يذكر ، بل إنك لا تميز بين الحافظ وغير الحافظ ، والمفروض أن الحافظ تلاحظه من أخلاقه ومعاملاته مع الناس ولكن هيهات ! بل صار في بعض الأحيان وللأسف أن بعضهم يستعمل المظهر الديني للخداع والتحايل على الناس ، حتى أصبح الناس يفرون من هؤلاء النوع ممن ينتسبون إلى الدين ، وهو منهم براء ، فأين العمل بالتنزيل ، فماذا فعلت ليبيا بما تقول مليون حافظ ، وأين هو أثرهم في البلاد .

6 - يحقق اليقين التام للنفس .

القرآن الكريم يحقق للنفس اليقين بأنه منزل من عند الله ، فكلما داوم المسلم على القراءة والتدبر ، خشع قلبه ، وارتوى من هذا النبع الصافي ، فالقرآن للقلب كالماء للشجرة ، فعندما يقرأ المسلم ويتأمل ويشاهد القصص القرآنية والأحكام وانسجام الآيات مع بعضها ، وكيف أن القرآن يصدق بعضه بعضاً ، ولا يجد فيه ما يجعله حائراً ، عند ذلك يعلم أن هذا القرآن هو كلام رب العالمين .

يقول الشيخ السعدي : "ومن فوائد التدبر لكتاب الله - تعالى - : وصول المتدبر إلى درجة اليقين، والعلم بأن القرآن كلام الله؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً ، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع ، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور ، فذلك قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ

الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ¹³⁵ أي أنه عندما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً ¹³⁶

7 - يحقق إنابة النفس لربها وتوبتها من معاصيها :

إن من عظمة هذا القرآن أنه يوقظ الغافلين ، وينبه النائمين ، ويرشد التائهين ، فما على الإنسان إلا أن يقرأ القرآن ويتدبر آياته ، وسوف يأخذه إلى طريق السعادة الأبدية بعون الله ، ومن ذلك ما روي من توبة الفضيل بن عياض ، قال ابن قدامة المقدسي (ت 742هـ) ذاكراً قصته : " كان الفضيل يقطع الطريق وحده ، فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق كعادته ، فإذا هبفاقلة قد انتهت إليه ليلاً ، فقال بعضهم لبعض : أعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يقال له : الفضيل ،

¹³² - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ، 512/1 ، رقم الحديث 746 .

¹³³ - جامع البيان للطبري 122/2 أخرجه من طريق الحسين بن واقد وإسناده صحيح وأخرجه الحاكم في المستدرک 743/1 رقم 2047 .

¹³⁴ - الجامع لأحكام القرآن 40/1 .

¹³⁵ - سورة النساء ، الآية 82 .

¹³⁶ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص 189 .

قال

فسمع الفضيل ، فأرعد ، فقال يا قوم أنا الفضيل جوزوا¹³⁷ ، والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبداً ، فرجع عما كان عليه ، وروي من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة ، وقال أنتم آمنون من الفضيل ، وخرج يرتاد لهم علفاً ثم رجع فسمع قارناً يقرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾¹³⁸ قال بلى والله قد آن ، فكان هذا مبتدأ توبته رضي الله عنه "139 . فانظر إلى تأثير القرآن الكريم على العصاة فضلاً عن الصالحين .

8 - الفوز بالخير الكثير .

ولا شك أن تدبر القرآن يأتي بكل خير ، وأنقل قول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع ، فيقول : " فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده ، وأقرب إلى نجاته : من تدبر القرآن ، وإطالة التأمل ، وجمع الفكر على معاني آياته ، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذاقيرهما ، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ، ومأل أهلها ، وتضع في يده مفاتيح كنوز السعادة ، والعلوم النافعة ، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه ، وتشد بنيانه ، وتوطد أركانه ، وترية صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه ، وتحضره بين الأمم ، وترية أيام الله فيهم ، وتبصره مواقع العبر ، وتشهده عدل الله وفضله ، وتعرفه ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وما يحبه وما يبغضه ، وصراطه الموصل إليه ، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه ، وقواطع الطريق وآفاتها ، وتعرفه النفس وصفاتها ، ومفسدات الأعمال ومصحاتها ، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ، ومراتب أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه ، وافتراقهم فيما يفترون فيه "140 .

ثانياً : ثمار التدبر غير المباشرة

إضافة إلى ما سبق ذكره من ثمار التدبر العظيمة ؛ التي يتحصل عليها المسلم من تدبره كتاب الله فإن هناك ثماراً أخرى غير مباشرة أذكر منها ما يأتي :

1- الحث على العلم والمعرفة ، إن الإنسان عندما يداوم على التدبر تنشأ عنده ملكة عظيمة وهي حب التفكير ، والتعرف على الأشياء وفهمها ، وبالتالي يبدع في المجالات الأخرى ، لا سيما ما يختار أو ما يحب من المجالات ، وقد مدح الله العلماء ورفع درجاتهم فقال - سبحانه - وتعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾¹⁴¹ .

2 - بروز مجتهدين في كل المجالات ، لا سيما في العلوم الشرعية ، والدليل ما أنتجوه من مؤلفات عظيمة تظهر بوضوح التفاعل الكبير بين أفكارهم وكتاب الله - تعالى - ، وحتى من سلك منهم العلوم الأخرى فقد أبدع ، والتاريخ يشهد لعلماء المسلمين وما قدموه للبشرية من علوم وفنون ، كالكيمياء ، والرياضيات ، والطب ، والحساب ، والفلك ، وغيرها من العلوم التي أسهمت في تطور البشرية ، وانتقالها من عصور الظلام والتخلف ، إلى عصور المعرفة والتطور ، فكتاب الله به مفاتيح الخير كلها ، ويا سعادة من تدبره وعمل به .

3 - تحريك العقل وتوظيف طاقاته ، وتنمية مهاراته في البحث العلمي والتجريبي ، لأن المسلم يقرأ في كتاب الله ، ويعلم أن

التفكير والنظر في الكون وفي النفس أمر شرعي ، وهو مطالب به كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾¹⁴²

¹³⁷ - جوزوا : جزت الطريق ، وجاز الموضع : سار فيه وسلكه ، وأجازه خلفه وقطعه ، لسان العرب ، مادة : جوز 320/5 .

¹³⁸ - سورة الحديد ، الآية 16 .

¹³⁹ - التوابين لابن قدامة المقدسي ص 207 - 208 .

¹⁴⁰ - مدارج السالكين ، 363/9 .

¹⁴¹ - سورة المجادلة ، من الآية 11 .

¹⁴² - سورة يونس ، من الآية 101 .

وق

ال أيضاً : ﴿ أَوْلَمْ يَنْفَكِرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾¹⁴³ ، وقال أيضاً ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾¹⁴⁴ والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تحض على العلم والمعرفة والتفكير فيما حولنا وفي أنفسنا حتى يتبين لنا الحق ، قال - سبحانه - : ﴿ سَأْتِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾¹⁴⁵ .

الفرع الثاني: واقعنا المعاصر وتدبير القرآن

إن المتدبر في واقعنا المعاصر يجد واضحاً جلياً أن هناك خللاً في فهم المسلمين لكتاب ربهم، فإذا نظرنا إلى عدد الحفاظ وجدنا جماً غفيراً على مستوى الأمة الإسلامية فمنهم من يحفظ القرآن كاملاً ، أو يحفظ نصفه ، أو ربه ، وهكذا ولكن الفهم والتدبر فيه محصلته لا تكاد تذكر ، حتى إنك لا تفرق بين حافظ القرآن وغيره من عوام الناس ، والسبب هو أن العديد من حفاظ القرآن ركزوا كل اهتمامهم على الحفظ والاستظهار فقط ، فتجدهم يجيدون القراءة وأحكام التجويد والتنشيت ، ولكن فهم المعاني والتدبر والعمل لا تجد له أثراً عندهم ، فضلوا الطريق الصحيح الذي رسمه لنا رب العالمين من خلال هذا الكتاب العظيم ، فلا فائدة من حفظ دون تدبر ولا عمل ، فالتدبر في آيات الله - تعالى - يعالج الجفاف الروحي لحافظ القرآن ، ولا يكون همه من قراءته نهاية السورة ، أو الجزء ، أو الختم ، فما هي الأسباب التي أوجدت هوة كبيرة بين المسلمين والقرآن الكريم ؟

أولاً عدم فهم حقيقة القرآن الكريم ،

فبعض المسلمين يظن أن القرآن الكريم كتاب بركة يقرؤه ليتبرك به فقط ، فتجده يختمه عدة مرات ، لا سيما في شهر رمضان ، فيتسابق الناس في كثرة القراءة والختمات ، وإذا سأله عن معنى آية واحدة ، أو ماذا مر بك من آيات في هذه الصفحات ، لا تجد شيئاً ، فهو يحرك لسانه ، وقلبه مشغول بالدنيا ، فلا فهم ، ولا تدبر ، ولا عمل ، أما سلفنا الصالح الذين سادوا الدنيا ما كانوا هكذا أبداً ، فهذا أبو عبد الرحمن السلمي يقول : " حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً "¹⁴⁶ فانظر إلى هذا وقارنه بحالنا ، فنحن إذا بدأنا حفظ القرآن لا نفكر في التدبر ، ولا العمل ، بل نفكر في الحفظ ، والأحكام ، وجودة القراءة فقط ، أما العمل به فلا نجد أحداً يتحدث عنه ، وهذا هو الفارق بيننا وبين الصحابة والسلف الصالح .

يقول الحسن البصري : " قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضيعوا حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة¹⁴⁷ لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء¹⁴⁸ ، وقال نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عمل "¹⁴⁹

الفرع الثاني الخطأ في فهم مصطلح أهل القرآن .

¹⁴³ - سورة الروم من الآية 8 .

¹⁴⁴ - سورة الذاريات ، الآية 21 .

¹⁴⁵ - سورة فصلت ، الآية 53 .

¹⁴⁶ - جامع البيان عن تأويل القرآن 80/1 ، أخرجه من جرير عن عطاء ، وهذا إسناد صحيح متصل .

¹⁴⁷ - الوزعة : كف النفس عن هواها ، والمراد : أي أعوان يكفونهم عن التعدي والشر والفساد ، لسان العرب 390/8 .

¹⁴⁸ - الكشف 4 / 92 .

¹⁴⁹ - مدارج السالكين 485/1 .

فكل من مسك المصحف وحفظ منه آيات ، أو أجزاء ، أو حفظه كله ، اعتبر نفسه من أهل القرآن ، فتجده لا يفهم منه شيئاً ، ومع هذا يقرأ ويردد ويوجد ويؤم الناس لا سيما في التراويح ، وقد مرت عليه السنون على هذه الحالة ، أما ما يحوي هذا الكتاب من أحكام ، وحلال وحرام ، وأخبار وقصص ، كل هذا لا يعرف منه إلا النزر اليسير ، بل نجده لا يعمل به إلا قليل ، ولهذا أين أثر ملايين الحفاظ في صلاح الأمة ورفيها ، فأنا أرى أن المدارس القرآنية المنتشرة في كل مكان يجب إعادة تنظيمها وتصحيح مسارها من الحفاظ فقط إلى الفهم والتدبر والعمل ، ولنا في الصحابة والتابعين أسوة حسنة ، كما قال شاعر الزهد والحكمة أبو العتاهية :

ولقد عجبت لهالك ونجاته موجودة ولقد عجبت لمن نجا

فنجاتنا موجودة معلومة معروفة ؛ من سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعمل أصحابه الكرام ، فلماذا نحيد عنها ونحن نعلم أنها طريق النجاة . إن الأمة لا تحتاج إلى نسخ جديدة من القرآن ، بل تحتاج إلى نسخ حية تربت بالقرآن ، وتعمل بالقرآن ، وتسير وفق منهج القرآن ، وهذا ما نفتقده ، ولهذا وصل حال الأمة إلى هذا الوضع السيء نسأل الله أن نرجع إلى الطريق المستقيم .

الفرع الثالث الاشتغال بفروع العلم الشرعي المختلفة ،

إن هذا الاشتغال بفروع العلم وجزئياته أصبح واضحاً جلياً لا سيما في العصور المتأخرة ، فتجد البعض يخوض في مسألة فرعية ، ويبدل فيها كل جهده ، ويصب غيظه على الطرف المقابل ، ويتمه بالجهل وقلة العلم ، وأحياناً بالبدع ، ففرقوا الأمة في مناهات من الخلافات السطحية بعيدين بذلك عن المنبع الأصلي للعلم والخلق من أصول الشريعة ومقاصدها

الفرع الرابع التقليد الخاطى .

وهذا التقليد ارتبط عند بعض الناس بما يشاهدونه منذ الصغر إلى أن كبروا ، فمثلاً تلاوة القرآن في مواسم العزاء ، فالأطفال اعتادوا في بعض الأماكن سماع القرآن عند موت أحد الناس فقط ، فارتبط في أدهانهم تلاوة القرآن بحالات الوفاة ، وكذلك افتتاح الندوات العلمية ، أو المهرجانات ، أو الاحتفالات بشتى أنواعها ، فهي تفتتح بآيات من القرآن ، ثم تنصرف القلوب والعقول ، وهكذا ارتبط في أدهان كثير من الناس هذا الحال ، فكأن القرآن وجد لهذه الأغراض؛ للعزاء وافتتاح الحفلات والمهرجانات ، والمؤتمرات وغيرها ، وهذا الارتباط ورث عند عوام الناس أنه لا يسمع القرآن ولا يتلى إلا في هذه المواضع ، حتى يكاد يصبح غريباً في بلاد المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأيضاً التأثير ببعض القراء الذين رزقوا صوتاً حسناً ، فتجد البعض يقلد هذا القارئ ولا يهمنه من القرآن غير ذلك ، تجده يستمع إلى هذا القارئ وينسجم مع تلاوته ، لا يفكر فيما يتلى من الآيات فلا يتدبرها ، ولا يفكر في أوامر ولا نواهي ولا ذكر عقاب ولا جزاء ، وإنما يكون كل تركيزه على صوت القارئ ونغمته .

ولكن هل من حلول لهذه الأسباب التي طغت على الكثير من الناس ، وأصبح القرآن في حياتهم بهذا الشكل لا أثر له ؟ نعم نقول إن هناك حلولاً لمن أراد أن يصحح ، ويرجع إلى الطريق المستقيم ، ويعرف لهذا الكتاب حقه الذي وجد لأجله ؛ ومن هذه الحلول ما يأتي:

إصلاح الواقع والرجوع إلى المنهج الصحيح .

أولاً : تصحيح واقع الناس في تعاملهم مع كتاب الله ، ويكون ذلك عبر وسائل الأعلام المختلفة وخطب الجمعة ، والدروس التوعوية ، وذلك بتعريفهم بأن هذا الكتاب هو منهج حياة ينبغي للمسلم أن يسير عليه ، ويتعامل معه ، وذلك بالتدبر والفهم والتطبيق .

ثانياً : تغيير واقع المدارس القرآنية . وأنا مدرس قرآن وقد بدأت أحاول تصحيح ما أراه من هذا الواقع ، فقد حفظ عندي عدد لا بأس به من الطلاب منذ ما يزيد عن ربع قرن من الزمان، وألتقي بالكثيرين منهم ، ومعظمهم قد نسي ما حفظ ، وانشغل بالدنيا ، فلا تدبر ، ولا فهم ، ولا تغيير في حاله ، فقد رأيت أن الخطأ كان منذ البداية فلا علمنا هؤلاء الأطفال عندما كانوا أطفالاً ما هو القرآن، ولماذا نحفظه ؟ ولا علمناهم كيف يتدبرونه، ويعيشون مع الآيات ويحاولون فهمها، وبعد الفهم العمل بها ، وأن الغرض الأساس والغاية العظمى من هذا كله هو ماتطبقه من القرآن ، وليس ما تحفظه وتردد تلاوته فقط ، لو فعلنا هذا لكان الحال أفضل ، ولربما كان عندنا من يحفظ القليل ويعمل به ، وليس يحفظه كله ولا يعمل بشيء منه ..

ثالثاً : فهم حقيقة القرآن ، القرآن كتاب هداية ، أنزله الله على رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - كي يقرأه الناس ، ويهدوا به ، ويعملوا بما فيه من خير لهم في الدنيا والآخرة ، لا أن يضعه المسلمون في الأرفف ، ويتبركون به كي يحفظ بيوتهم من السرقة ، أو في سياراتهم لنفس الغرض ، ولا يفتحونه إلا نادراً جداً وفي شهر رمضان ، ثم يغلقونه إلى العام القادم ، وهكذا . ولكن لو علمنا حقيقة هذا الكتاب العظيم ، وأنه مصدر هدايتنا وسعادتنا ، بل وأن مجرد تلاوته باستمرار لنا فيها الأجر العظيم ، لو علمنا ذلك لكانت علاقتنا بهذا الكتاب العظيم أفضل مما هي عليه ، فلا بد من تصحيح مفهوم الناس عن القرآن الكريم ، وألا يجعلونه كتاباً يتبركون به ويقبلونه دون أن يفتحوه ويعلموا كنوزه الحقيقية ، إن هذا القرآن كله كنوز بداية من تلاوته أثناء الليل وأطراف النهار ، إلى تدبره وفهمه وصولاً إلى العمل به، واتخاذ منهج حياة يسير عليه المسلم كي يعيش حياة طيبة كريمة في الدنيا والآخرة .

رابعاً : الإكثار من تلاوة القرآن الكريم ، وأن يكون المسلم على اتصال دائم به ، مع كثرة الوقوف والتدبر لآياته ، فإن التدبر لا يتحقق بقراءة القرآن على فترات متباعدة وربما متباعدة جداً وإنما يتحقق بكثرة القراءة والتركيز فيها والتمعن ، والتدقيق ومنها يرتقي الإنسان شيئاً فشيئاً حتى يهديه الله إلى الفهم والعمل به ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ

لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ 150

خامساً : تهيئة الجو المناسب للقراءة ، إن قراءة القرآن بتدبر تحتاج إلى جو مناسب وهدو أعصاب، وراحة بالٍ ، بحيث يقرأ الإنسان ويتدبر ويركز فيما يقرأ ، أما القراءة في وجود مؤثرات خارجية ، كأن يقرأ ويستمع في نفس الوقت إلى أحد يتحدث إليه ، أو إلى التلفاز ، أو يقرأ وهو يفكر في مشكلة ما ، فإن القراءة في هذه الحالات لن تكون بتركيز ، ولا تدبر ، ومنها أيضاً أن لا يقرأ ويفكر في نهاية السورة أو الجزء الذي بين يديه ، بل تكون القراءة بتمعن وأحياناً يقف عند آية يكررها عدة مرات، ويعيش مع ما فيها من خير وبركة .

خاتمة البحث

أحمد الله العلي القدير على ما يسر لي من تمام هذا البحث ، وسألخص خاتمته في أبرز النقاط التي توصلت إليها :

1 - إن مفهوم التدبر مفهوم واسع ، فهو أوسع من مدلوله اللغوي الذي ينظر إلى التدبر على أنه النظر فيما وراء الألفاظ ، وإنما التدبر بالمفهوم الشرعي هو حضور القلب بعد العقل ليعيش المسلم مع الآيات ويتأمل فيها بقصد الانتفاع بها .

2 - إن أمر التدبر يشمل كل الناس المسلم وغير المسلم ، فيكون واجباً في حق الجميع لا سيما المسلمين ، كما قال تعالى : ﴿

كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ بِإِنكَ مَبْرُكٌ لِيَذَرُوهَا بَيْنَهُمْ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿ 151 .

150 - سورة العنكبوت ، الآية 69 .

151 - سورة ص الآية 29 .

3 - إن الغاية والقصد من نزول القرآن الكريم هو التدبر والعمل به ، إذ إنه مفتاح الخير كله ، ومفتاح العلوم والمعارف كلها ، ولقد ركز سلفنا الصالح على التدبر والعمل وأن هذا أفضل من كثرة الحفظ دون عمل ، فعرفوا بذلك مقاصده ومراده واستنبطوا أحكامه ، وعملوا به فسادوا الدنيا. ولا شك أن هناك عوامل ساعدت سلف هذه الأمة على التدبر والعمل بهذا القرآن العظيم ، حتى فازوا في الدنيا والآخرة ، من هذه العوامل :

1- الإخلاص ، فكلما أخلص المسلم عمله لله كان موفقاً ، فأخلص الإنسان عمله لله وابتعاده عن المعاصي يقربه من الله وهذه الغاية الكبرى الموصلة إلى التدبر الصحيح .

2- دعاء الله - سبحانه وتعالى - وسؤاله التوفيق ، فكلما اعتمد الإنسان على الله كان موفقاً وناجحاً في كل شيء ،

3 - كثرة الاستماع للقرآن الكريم ، إذا استمع الإنسان لكلام الله - تعالى - ، وأمعن الفكر فيه انشرح صدره ، وازداد فهمه ، وتعلق به أكثر ، حتى يصل إلى الفهم الصحيح ، ومن تم التدبر الصحيح .

4 - القراءة بتأن وتمهل ، وحسن صوت فهذه أيضاً تثير المشاعر ، وتعين الإنسان على التدبر.

5 - ترديد الآيات المؤثرة ، حتى ينتفع القلب بها ، مع صرفه عن موانع التدبر كالذنوب ، والمعاصي، والحسد ، والحقد ، والرياء ، وحب الظهور ، والكبر ، والعجب ، وغيرها من السلوكيات التي تفسد على الإنسان صفاءه وبالتالي تمنعه من التدبر .

6 - التواضع واللين والإقرار بالحق من الأشياء التي تعين على التدبر ، فيجب على الإنسان أن يكون متواضعاً يرجع إلى الحق متى ظهر له .

7 - الابتعاد عن مجالس اللغو ، فلا ينبغي للمسلم العاقل أن يعمر مجالس اللغو ، ويرافق أهل اللغو ؛ الذين لا يحسبون للوقت حساباً .

8 - الاهتمام باللغة ، إذ إن القرآن عربي وفهم اللغة يعين على فهم الكثير من القرآن الكريم ، أيضاً كتب التفسير كلما أمكن ، فهي تعين على فهم الكثير من القرآن .

9 - تصحيح وضع المدارس القرآنية ؛ وذلك بالافتداء بالسلف الصالح حيث كانوا إذا حفظ الواحد منهم عشر آيات لا يبرحها حتى يفهمها ويعمل بها .

ثبت المصادر والمراجع

1 - الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط4 ، 1398هـ .

2 - أحكام القرآن للجصاص ، ت محمد الصادق قمحاوي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، 1405 هـ .

3 - أخلاق حملة القرآن ، محمد الحسين الأجرى ، تح : أحمد شحاتة ، دار الصفاء والمروة بالأسكندرية ن ط 1 ، 1426 هـ 4 - الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، تح سمير جابر ، دار الفكر - بيروت ، ط2 .

5 - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، أحمد عبد الحليم بن تيمية ، تح ناصر عبد الكريم العقل ، دار عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ط7 ، (1419 هـ) .

- 6 - البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، تح : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض . دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت ط1 ، (1422هـ) .
- 7 - تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي ، تح: مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، بدون سنة طبع .
- 8 - التبيان في آداب حملة القرآن ، يحيى بن شرف النووي ، تح : محمد الحجاز ، دار بن حزم، بدون سنة طبع .
- 9 - التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997 م .
- 10 - تدبر القرآن ، سلمان بن عمر السنيدي ، مجلة البيان ، ط2 (1423هـ) .
- 11 - تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق ، درقية طاهر جابر العلواني .
- 12 - تدبر القرآن الكريم ، د فهد بن مبارك الوهيبي ، مجلة الدراسات القرآنية العدد (8) ، (1432هـ) .
- 13 - التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني ، تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الأولى ، (1405 هـ).
- 14 - تعليم تدبر القرآن الكريم ، أساليب عملية ومراحل منهجية ، د . هاشم بن علي الأهدل ، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي ، بدون سنة طبع .
- 15 - تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن كثير ، تح : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ط 2 ، (1420هـ) .
- 16 - تفسير القرن العظيم ، لابن أبي حاتم ، تح : أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار مصطفى الرياض ، ط 3 ، (1419هـ) .
- 17 - تقريب التهذيب ، أحمد بن حجر العسقلاني ، تح : محمد عوامة ، دار الرشيد ، سوريا _ (1406 هـ) .
- 18 - التوايين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، تح : عبد القادر الأرنؤوط ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (1403 هـ).
- 19 - تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ، تح : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، (1420 هـ) .
- 20 - جامع البيان عن تأويل أي القرآن . ابن جرير الطبري ، تح : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، (1420هـ) .
- 21 - الجامع لأحكام القرآن ، محمد القرطبي ، تح هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب ، الرياض ، المملكة السعودية ، (1423هـ) .
- 22 - حقائق التفسير محمد بن الحسين الأزدي السلمي ، تح سيد عمران ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط1 ، (1421هـ)
- 23 - خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام ، للنووي ، تح : حسين إسماعيل الجمل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، (1418هـ)
- 24 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، محمود الألوسي ، دار إحياء التراث العربي بيروت .
- 25 - زاد المسير في علم التفسير ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط3 ، (1404هـ) .

- 26 - سنن ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر بيروت .
- 27 - سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت ، بدون سنة طبع .
- 28 - سنن البيهقي الكبرى ، أحمد بن الحسين البيهقي ، تح : محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة (1414هـ) .
- 29 - سنن الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي ، تح : أحمد محمد شاکر وآخرون ، إحياء التراث العربي - بيروت ، بدون سنة طبع .
- 30 - سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، تح : فواز أحمد زمرلي ، وخالد السبع العلمي ، دار الكتاب العربي - بيروت (1407هـ) .
- 31 - سنن النسائي الكبرى ، أحمد بن شعيب النسائي ، تح : د. عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية - بيروت ط1 ، (1411هـ) .
- 32 - سير أعلام النبلاء ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تح : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط9 (1413هـ) .
- 33 - شرح رياض الصالحين ، محمد بن صالح العثيمين ، دار الوطن - الرياض (1426هـ) .
- 34 - شرح صحيح البخاري ، علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل ، تح : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد - الرياض - ط2 (1423هـ) .
- 35 - شعب الإيمان ، أحمد بن الحسين البيهقي ، تح : محمد بن سعيد بسبوني زغلول ، دار الكتب العلمية بيروت ط1 ، (1410هـ) .
- 36 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، محمد بن حبان البستي ، تح : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط2 ، (1414هـ) .
- 37 - صحيح ابن خزيمة ، محمد بن اسحاق بن خزيمة ، تح : د. محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي - بيروت ، (1390هـ) .
- 38 - صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تح : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت ط2 ، (1407هـ) .
- 39 - صحيح سنن أبي داود ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بدون سنة طبع .
- 40 - صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- 41 - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، (1379هـ) .

42 - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشري ، تح : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، بدون سنة طبع.

42 - لسان العرب لابن منظور ط1 ، دار صادر بيروت ، بدون سنة طبع .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته